السنة النبوية

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾

[المائدة: ٦٧]

«ألا إنى أوتيت القـــرآن ومثلـه معـه»

[حديث شريف]

oberkamil.com

obeikandl.com

السنة النبوية

إذا كان القرآن هو دستور الإسلام الخالد، الذى رسم للمسلمين أمور دينهم من عقيدة وعبادات وشريعة، فإن السنة النبوية هى الشارحة للقرآن الكريم والمكملة له.

والسنة فى اللغة تعنى الطريقة، حسنة كانت أم سيئة، لقوله عليه الصلاة والسلام:

«من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ولكن المسلمين اصطلحوا على أن تكون السنة هى الطريقة التى طبق فيها الرسول والصحابة ما جاء فى كتاب الله عز وجل.

وقد أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يحتكم المسلمون إلى الكتاب والسنة حتى يتجنبوا الطريق الذى يؤدى إلى ما فيه ضرر بالمسلمين.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله».

وقال أيضًا:

«عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى».

وإذا كان التمسك بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام فى غاية الأهمية، ولا غنى عنه لفهم ديننا الحنيف، فقد حذرنا النبى من الذين يُدخلون فى الدين ما ليس فيه، وينشرون البدع، وقد نهانا النبى عليه الصلاة والسلام عن تلك البدع والأخذ بها بقوله:

«من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد».

وعلماء الأصول يرون أن السنة هى ما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام من أقوال أو أفعال، وبالتالى فهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم.

ويحدثنا الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق عن السنة فى اصطلاح الفقهاء فيرى أنه إذا كانت كلمة السنة عند علماء الأصول هى ما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام من أقوال أو أفعال أو تعزيرات، فقد أخذت عند الفقهاء معنى آخر، هو الصفة الشرعية للفعل المطلوب غير حازم، بحيث يثاب المرء على فعله ولا يعاقب على تركه.

ويوضح الفرق بين اصطلاح الأصوليين واصطلاح الفقهاء.. أنها عند الأصوليين اسم لدليل من أدلة الأحكام، فيقال: هذا الحكم ثبت بالسنة أى لا بالقرآن، أما عند الفقهاء فهى: حكم شرعى يثبت للفعل

بهذا الدليل فيقال: هذا الفعل سنة، أو حكمه السنية، أى ليس فرضًا ولا واجبًا، فهى على هذا حكم من الأحكام لا دليل من الأدلة، وهو يرى أن معناها عند الحديث عن مصادر الشريعة لا يراد منها سوى اصطلاح الأصوليين، لأنها بهذا الاصطلاح هى التى اتخذها العلماء مصدرًا من مصادر التشريع، ودليلاً من أدلة الفقه، يستنبطون منها الأحكام ويرجعون إليها فى فهم القرآن.

وقد حاول البعض أن يثبت أنه يكفى كتاب الله، لأن فيه كل شىء، وأن الرسول لم يأمر بتدوين الأحاديث، ولكن هؤلاء لم يفهموا الإسلام فهمًا صحيحًا، لأن القرآن الكريم نفسه يحث المسلمين على الأخذ بما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ويقول أيضًا:

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة التى ترشدنا إلى أن السنة مكملة وشارحة لما جاء فى القرآن الكريم.

ويفرق الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت بين القرآن والسنة وأثرهما فى كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة) فيجعل الفروق

بينهما فيما يأتى:

أولا: القرآن قد اتخذ له الرسول ﷺ كتابًا يكتبونه ويرتبونه بآياته وسوره حسب ما أمر به من الله، بينما السنة لم يتخذ لها كتابًا، ولم يكتب منها إلا القليل،بل ورد كما تقدم النهى عن كتابتها اكتفاء بحفظها فى الصدور.

ثانيا: القرآن نقل إلينا بالتواتر حفظًا وكتابة بينما السنة قد نقلت فى معظمها بطرق الآحاد ولم يتواتر منها إلا القليل.

ثالثًا: القرآن لم ينقل منه شىء بالمعنى وذلك ممنوع فيه منعًا باتًا، بينما السنة قد أبيح فيها ذلك. ونقل كثير منها بالمعنى ولا يخفى تفاوت الناس فى فهم المعنى وأسلوب التعبير والنقل.

رابعًا: كان الأصحاب يراجعون النبى ﷺ عند اختلافهم فى حرف من القرآن. وكان يحكم بينهم فيه. إما بتعيين إحدى القراءتين أو بإجازتهما.. بينما السنة لم يعهد فيها شىء من ذلك.

أثر تلك الفروق: وقد كانت هذه الفروق أصلاً فى انحصار مصدر العقيدة فى القرآن وعدم الاعتماد فى ثبوتها على السنة. وكانت فى الوقت نفسه سببًا عظيمًا فى اتساع نطاق الخلاف فى دائرة السنة أكثر منه فى دائرة القرآن فإن الخلاف فيها تناولها من جهة الثبوت ومن جهة الدلالة ومن جهة المعارض لها منها أو من غيرها.

بينما القرآن لم يتناوله خلاف إلا فيما يختص بجهة الدلالة أو

بجهة المعارض له منه إن وجد، وسيتضح هذا حين نذكر أسباب الخلاف بين العلماء فى فقه القرآن والسنة.

ويتحدث عن السنة تشريع وغير تشريع فيقول:

ينبغى أن يلاحظ أن كل ما ورد عن النبى ﷺ ودون فى كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته على أقسام:

أحدها: ما سبيله سبيل الحاجة البشرية كالأكل والشرب والنوم والمشى والتزاور والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية والشفاعة والمساومة فى البيع والشراء.

ثانيها: ما سبيله التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية كالذى ورد فى شئون الزراعة والطب وطول اللباس وقصره.

ثالثها: ما سبيله التدبير الإنسانى أخذًا من الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش على الموقع الحربى، وتنظيم الصفوف فى الموقعة الواحدة والكمون والكر والفر، واختيار أماكن النزول وما إلى ذلك مما يعتمد على وحى الظروف والدربة الخاصة.

(وكل ما نقل عن هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعًا يتعلق به طلب الفعل أو الترك، وإنما هو من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول ﷺ فيها تشريعًا ولا مصدر تشريع).

* * *

ودارس السيرة النبوية يعرف أن النبى عليه الصلاة والسلام له أحاديث بوحى من الله تعالى، وأن له أحاديث تعتمد على رأيه.. أى أن أحاديث الرسول ﷺ إما أن تكون وحيًا وإما أن تكون رأيًا.

ويدل على ذلك عندما جاءت مكة لتحارب الرسول عليه الصلاة والسلام وهى تعتقد أنها سوف تقضى على الإسلام والمسلمين وقابلهم الرسول بالقرب من (بئر بدر).. وقد شاهد الرسول كثرة عدد أعدائه وصلفهم وغرورهم واعتدادهم بكثرتهم، حتى أنه قال داعيًا ربه وهو يرى أصحابه فى قلتهم وقلة عتادهم، وهم لا يملكون إلا شجاعة الإيمان:

«اللهم إنهم حفاة فاحملهم،

اللهم إنهم عراة فاكسهم،

اللهم إنهم جياع فأشبعهم».

لقد نزل الرسول بالقرب من ماء بدر.. وهنا تقدم إليه الحباب بن المنذر وقال له:

- يا رسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة».

وعندما علم الحباب أن المسألة مسألة رأى وليس وحى، أوضح

وجهة نظره للرسول قائلا:

(يا رسول الله ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فإنى أعرف غزارة مائه، وكثرته، فننزله وتغوِّر ما عداه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون).

فقال الرسول ﷺ:

«لقد أشرت بالرأى».

واختار المسلمون مكان المعركة.

وقال سعد بن معاذ للرسول عليه الصلاة والسلام:

(يا نبى الله ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عنده ركائبك ثم نلقى عَدوَّنا، فإن أعزّنا الله، وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلّف عنك أقوام ـ يا رسول الله ـ ما نحن بأشد حبًا لك منهم.. ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك.. يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك).

وقد أثنى عليه النبى ﷺ ودعا له بخير.

وهذا يدل على أن النبى كان يشاور قومه فيما ليس فيه وحى ملزم. وأنه كانت له آراء يعرضها على قومه ويشاركهم ويشاركونه الرأى.

وعقب هذه المعركة الذى انتصر فيها المسلمون انتصارًا رائعًا على أعدائهم، فقد قتل من المشركين سبعون رجلاً، واستطاع المسلمون أن يأسروا سبعين رجلاً. برز سؤال حول مصير الأسرى أيقتلون أم يفدى عنهم، فقال أبو بكر الصديق:

- يا رسول الله.. قومك وأهلك استبقهم واستنبهم لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر بن الخطاب:

- يا رسول الله أخرجوك وكذبوك! مر بهم فأضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة الأنصارى:

- يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم اضرمه عليهم نارًا!

لقد اختلفت الآراء حول مصير الأسرى، وانتظر الناس ما يقوله النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام.. فإذا بهم يستمعون إليه يقول:

«إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله لَيُشدِّد قُلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة.

أنتم فقراء، فلا يَبْقَينَّ أحد من الأسرى إلا بضربة عنق أو فداء.

وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم حين قال: ﴿**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وإن مثلك يا عمر مثل نوح حين قال:

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وقبل الرسول الفداء.

ولكن جاء وحى السماء مؤيدًا رأى عمر:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٨].

إذن الصحابة قد عرفوا وفرقوا بين ما هو رأى للرسول عليه الصلاة والسلام، وبين ما هو وحى للرسول، سواء أكان هذا الوحى قرآنًا أم إلهامًا للرسول.

ويقول الدكتور محمد الأحمدى أبو النور فى كتابه (شذرات من علوم السنة) وهو يعلق على الاختلاف حول أسرى بدر.

(فلو كان ما صدر عن النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه المشاورة وحيًا ما عاتبه الله عز وجل.

بيد أن الله تعالى عاتبه، فثبت أن كان اجتهادًا اجتهده ورأيًا ارتآه.

غير أن النبى ـ عليه السلام ـ فيما يراه أو يجتهد فيه ليس كأى منا فيما يراه أو يجتهد فيه.

إن الله تعالى يخصه بالمتابعة بالوحى، فما كان صوابًا أقره، وما

كان غير ذلك عاتبه فيه، كما حدث فى هذه القضية (أسارى بدر).

وإقرار الله لنبيه عليه السلام فى شىء يجعل لهذا الشىء حكم الوحى فى إيجاب اقتدائنا به واتباعنا له.

وإذن فنحن نستطيع أن نقول: إن ما تحدث به النبى ﷺ فيما عدا ما عوتب فيه إما أن يكون وحيًا صريحًا أو وحيًا حكمًا، وكله يجب الصدور عنه، والأخذ به، على ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧].

وقوله تعالى:

﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ونعود إلى الشيخ محمود شلتوت وهو يحدثنا فى السنة (تشريع عام وخاص) فيرى ما كان سبيله التشريع وهو على أقسام:

أولا: ما يصدر عن الرسول ﷺ على وجه التبليغ بصفة أنه رسول، كأن يبين مجملاً فى الكتاب، أو يخصص عامًا، أو يقيد مطلقًا، أو يبين شأنًا فى العبادات، أو الحلال أو الحرام، أو العقائد والأخلاق، أو شيئًا متصلاً بشى مما ذكر.

ثانياً: ما يصدر عنه ﷺ بوصف الإمامة والرياسة العامة لجماعة المسلمين: كبعث الجيوش للقتال، وصرف أموال بيت المال فى

جهاتها، وجمعها من محالها، وتولية القضاة والولاة، وقسمة الغنائم، وعقد المعاهدات وغير ذلك مما هو شأن الإمامة، والتدبير العام لمصلحة الجماعة.

وحكم هذا أنه ليس تشريعًا عامًا، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام، وليس لأحد أن يفعل شيئًا من تلقاء نفسه بحجة أن النبى فعله أو طلبه.

ثالثًا: ما يصدر عنه ﷺ بوصف القضاء، فإنه كان رسولاً يبلغ الأحكام عن ربه، ورئيسًا عامًا للمسلمين ينظم شئونهم ويدير سياستهم، وكان عليه الصلاة والسلام مع ذلك قاضيًا يفصل فى الدعاوى بالبينات، أو الأيمان، أو النكول.

وحكم هذا كسابقه، ليس تشريعًا عامًا، حتى يجوز لأى إنسان أن يقدم عليه بناء على قضائه به، وفصله فيه بحكم معين، بين من حكم بينهم، بل يتقيد المكلف فيه بحكم الحاكم، لأن الرسول تصرف بوصف القضاء. ومن هذه الجهة لا يلزم أن يكلف إلا بقضاء مثله، فمن كان له حق على آخر ويجحده وله عليه بينة فليس له أن يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم، لأن هذا هو الذى كان شأن أخذ الحقوق عند التجاحد على عهد الرسول ﷺ.

ومن المفيد جدًا معرفة الجهة التى صدر عنها التصرف، وكثيرًا ما تخفى فيما ينقل عنه ﷺ ولا ينظر فيه إلا من جهة أن الرسول فعله

أوقاله أو أقره.. ومن هنا نجد أن كثيرًا مما نقل عنه ﷺ صُوِّر بأنه شرع أو دين أو سنة أو مندوب. وهو لم يكن فى الحقيقة صادرا على وجه التشريع أصلاً. وقد كثر ذلك فى الأفعال الصادرة عنه ﷺ بصفة البشرية أو بصفة العادة والتجارب. ونجد أيضًا أن ما صدر على وجه الأمانة أو القضاء قد يؤخذ على أنه تشريع عام. ومن ذلك تضطرب الأحكام وتختلط الجهات، وقد تكون معرفة الجهة فيما يمكن من كل ذلك واضحة جلية فيتقيد كل فعل بالجهة التى صدر عنها.

وقد يشتبه الأمر على الناظر فى معرفة الجهة التى صدر عنها الفعل فيقع خلاف بين العلماء فى صفة التشريع تبعًا لخلافهم فى الجهة التى صدر عنها ذلك التشريع.. وضرب لذلك أمثلة.

لقد كانت سنته عليه الصلاة والسلام - وستظل - نور هداية للمسلمين تهديهم إلى سواء السبيل، وترشدهم إلى ما فيه الخير لدينهم ودنياهم.. ففى السنة بجانب التشريع على الخلق القويم، وتقويم حياة الإنسان، ليكون جديرًا بحياته التى يحياها، والحياة الأخرى التى ينتظرها فى العالم الآخر.

وصدق رسول الله ﷺ فقد قال:

«نَضَّر الله عبدًا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأدّاها. فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

ومن هنا فقد تجشم الصحابة والتابعون الكثير حتى يحفظوا ما قاله الرسول من الأحاديث النبوية الشريفة إلى أن أمر الخليفة الزاهد عمر ابن العزيز بتدوينه وما تبع ذلك من حرص الناس على التأكد من صحة الأحاديث التى وردت عن الرسول الكريم، وتأكيدها عن طريق البحث عن مصادرها ودرجة الوثوق فيمن رووا هذه الأحاديث..

ويروى عن أنس رضى الله عنه قوله:

كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتيه الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع فأتاه رجل منهم فقال:

يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك.

قال: «صدق».

قال: فمن خلق السماء؟

قال: «الله».

قال: فمن خلق الأرض؟

قال: «الله».

قال: فمن نصب هذه الجبال؟

قال: «الله».

قال: فمن جعل فيها هذه المنافع؟

قال: «الله».

obeikandl.com

قال: فبالذى خلق السماء والأرض. ونصب الجبال، وجعل فيها هذه المنافع أأللە أرسلك؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلنا.

قال: «صدق».

قال: فبالذى أرسلك أأللە أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا صدقة فى أموالنا.

قال: «صدق».

قال: فبالذى أرسلك أأللە أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر فى سنتنا؟

قال: «صدق».

قال: فبالذى أرسلك أأللە أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟

قال: «صدق».

obeikandl.com

قال: فبالذى أرسلك أألله أمرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن.

فلما مضى قال: «لئن صدق ليدخلن الجنة».

* * *

فلنعض على سنة الرسول بالنواجز.. لأنها الشارحة لكتاب الله.. والتى تكسب المسلم طهارة القلب والوجدان، وتدفعه إلى الطهر والنقاء وتفتح له طرق الأرض وطرق السماء!.

***

obeikandl.com